لقاء مع مجلة «المعرفة»*

ونحن نعد ملف اللغة العربية أردنا أن نضمنه حواراً مع أحد المهتمين باللغة العربية مشاكلها وقضاياها شؤونها وشجونها.

لم نكن نبحث عن رجل يجيد التنظير والتقعر والمنافحة عن العربية، بقدر ما كنا نبحث عن رجل متخصص يحمل أفكاراً قابلة للتطبيق من لدن الأفراد والمجتمعات، الهيئات الحكومية والمؤسسات الأهلية.

من أجل ذلك كله كان هذا الحوار مع معالي الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب مدير جامعة الملك سعود سابقاً، أستاذ الأدب العربي وعضو مجلس الشورى السعودي حالياً.

إنه حوار يحوي كثيراً من الأفكار التي تستحق التوقف عندها، لا ليس التوقف عندها، بل حملها والذهاب بها إلى أصحاب القرار، من المسؤول الحكومي في هيئته مع موظفيه .. إلى المسؤول الأبوي في منزله مع أبنائه.

السؤال الأول: اللغة والحضارة:

... يجادل البعض بأن اللغة لن تقوى ويصبح لها فعالية حضارية إلا بقوة أهلها، وبما أن (اللغة العربية محفوظة بحفظ الله لها بالقرآن الكريم) فإن الاهتمام بالتقنية والعلوم والصناعة (وهي الآن بغير اللغة

العربية) هو أولى وأجدى ــ مرحلياً ــ وكذلك فعلت كثير من الأمم لكي تنهض، فلابد من أن تتعلم لغة العلم وتجعل لها مكانة في المجتمع. وعندما تقوى الأمة سياسياً وحضارياً فإن لغتها تلقائياً ستكون قوية وسائدة وفاعلة .. فما رأيكم في هذا الطرح؟

ـ في هذا السؤال حُشدت كثير من القضايا المتشابكة، ويحسن بنا أن نفككه إلى عناصرَ نُجيب عن كل واحد منها على حدة:

أ ـ فيما يخص القول بأن اللغة العربية لن تقوى ويصبح لها فاعلية حضارية إلا بقوة أهلها. لست أظن أن هنالك تلازماً بين قوة اللغة وبين فعاليتها في التأثير الحضاري، اللغة يمكن أن تكون قوية في بيئتها، وليس لها ذلك التأثير الحضاري خارج حدودها.

اللغة العربية مثلاً كانت قوية في العصر الجاهلي في بيئتها لكنها لم تكن ذات تأثير حضاري على العالم، الفرعونية القديمة كانت قوية في بيئتها ولم يكن لها تأثير حضاري على غيرها، المشاهد في هذا العصر أن اللغة اليابانية قوية جداً في بيئتها وليس لها إشعاع حضاري خارج إقليمها، ولو بحثت عن كلمة يابانية في اللغة العربية لما وجدت ذلك (إذا استثنينا أسماء السيارات والأجهزة اليابانية وهي أسماء لعلامات تجارية، وليس لها دور في الاستعمال اللغوي خارج عما وضعت له) . .

نعم؛ إذا قويت الأمة وسيطرت عسكرياً أو ثقافياً على بيئات واسعة كانت أو ضيقة فإنها في هذه الحالة يكون لها تأثير حضاري. في عصر شكسبير كان المتحدثون باللغة الإنجليزية لا يتعدى عددهم خمسة ملايين نسمة، وكانت هذه اللغة محصورة في ما يسمى بإنجلاند وجنوب اسكوتلاندا فقط، ولم تكن دخلت إلى مقاطعة ويلز، ولا إلى جزيرة أيرلندا (فيما يسمى بريطانيا الآن)، أما في أوروبا فلم يكن لها وجود بالمرة. ومع ذلك فقد كتبت بها أروع أعمال الإنجليز، وهي أعمال شكسبير. فهل كانت اللغة ضعيفة في بيئتها؟ لا . . وإنما كانت محدودة الانتشار، ولقوتها في بيئتها استطاعت أن تستوعب العلوم والآداب وأن يبدع أهلها بها.

اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر كانت أقوى تأثيراً من الإنجليزية، فقد كانت لغة الثقافة والفنون ولم تستطع الإنجليزية منافستها في أوروبا على الرغم من بداية القوة البريطانية في هذا العصر واتساع نفوذ الإنجليز السياسي والعسكري.

اللغة القوية في مجتمعها (وهذا ما نريده للعربية) هي التي تنقل هذا المجتمع من التخلف إلى التقدم، وتساعد على اتساع نطاق العلوم والثقافة في المجتمع. أما اللغة الأجنبية فإن الاعتماد

عليها وإضعاف اللغة الأم يؤدي بهذا المجتمع إلى التبعية العلمية والفكرية، وليس وراء التبعية إلا القضاء على الهوية، ومسخ الشخصية، واستمرار الضعف والتخلف.

ب ـ جدوى الاهتمام بالتقنية والصناعة لا يختلف فيه اثنان، وكون معظم ما يكتب عنها هو باللغة الأجنبية صحيح وتعلم اللغة الأجنبية لا شك في فائدته؛ لكن لا بد لنا أن نعرف أن اللغة الأجنبية سلاح ذو حدين:

إما أن تتعامل معها بحذر بحيث لا تطغى على لغتك الأم، وبحيث تتخذها وسيلة لإغناء هذه اللغة من خلال الترجمة، وإشاعة العلوم والمعارف المستقاة من هذه اللغة باللغة العربية بين أبناء أمتك وحينئذ تكون قد خدمت نفسك وأمتك ووضعت هذه الأمة على عتبات التقدم.

وإما أن تفرض اللغة الأجنبية على الجميع في التدريس والحديث والكتابة، وحينئذ تعزل لغتك عن معترك العلوم والتقنية، وتعزل أمتك أيضاً، وتصبح تابعاً تتلقى ما يقذف به إليك الغرب من منتجات، دون أن تكون لك إسهامات تنسب إلى أمتك أو تفيدها في الحياة. أن تدرس وتكتب وتتحدث باللغة الأجنبية معناه أن تتحول إلى (خواجه) غير معترف به من الخواجات أنفسهم، كما أن إسهاماتك كلها

تنسب لهم وهذا ما حدث بالنسبة للنابغين العرب الذين نبغوا في الغرب فكل إسهاماتهم لم يستفد منها إلا المؤسسات والشركات الغربية، وبالتالي عدت هذه الإنجازات إنجازات غربية لم تنسب للعرب ولم تحسب لهم ولم يفيدوا منها في الخروج بأمتهم من وهدة التخلف.

إن تبني اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات في كل مجالات الحياة هو بمثابة الانتحار الحضاري الذي تقدم عليه الشعوب المتخلفة دون أن تدري. ويكفي أن تعلم أن كثيراً من الشعوب في أفريقيا وغيرها سادت فيها اللغات الأجنبية وأصبحت لغاتها الرسمية، التي تتحدث بها، وتكتب بها، ظناً منها أنها ستكون جزءاً من هذه الأمة المتقدمة أو تلك، ولكنها لم تحصد سوى التخلف والبؤس والفرقة بين تابعين لتلك الأمم لا يستطيعون فكاكاً منها، وبين محافظين على الهوية والشخصية.

ج ـ ليس صحيحاً أن كل الأمم الناهضة قد اعتمدت اعتماداً كلياً في الحديث والكتابة والتعليم على اللغة الأجنبية ثم تخلصت منها فيما بعد. ما حدث في كل الحضارات القديمة والمعاصرة أن اللغة الأجنبية قد تصدى لمعرفتها بعض العلماء والتراجمة، الذين نقلوا ما فيها إلى اللغة الأم، ثم نشروا العلوم باللغة الأم بين قومهم المحتفظين بلغتهم والمعتزين بها.

ومن خلال هذه العملية انتشر العلم في مجتمعاتهم واتسعت آفاقه، واستطاعوا بعد ذلك الابتكار والنقص والإضافة إلى هذا العلم أو ذاك. وإذا أردت الدليل فانظر إلى تاريخ الحضارة الغربية المعاصرة، وإلى ما وصلت إليه اليابان الحديثة من تقدم تجد أن طريق الترجمة وتوطين العلوم باللغة الأم كان هو الطريق الوحيد نحو النهضة.

السؤال الثاني:

.. هل ترون أن ضعف اللغة العربية السائدة هو بفعل أبنائها، أم أن (التآمر) الخارجي والاستعمار هو الذي أدى إلى حالة الضعف الراهنة:

ـ ضعف اللغة العربية في الوقت الراهن يعود بالدرجة الأولى إلى أبنائها الذين تنكروا لها وضيقوا أمامها سبل الحياة.

كان الاستعمار الخارجي سبباً في ضعف اللغة ومحاولة إلغائها من حياة العرب في البلدان التي استولى عليها، وكانت المقاومة شديدة في ذلك الوقت لإدراك الجميع أن الاستعمار إنما يريد ربط هذه البلدان بقومه وثقافته لتثبيت أقدامه.

وفي استفتاء أجرته مجلة الهلال سنة ١٩٢٠م عن مستقبل اللغة العربية بين مجموعة من المثقفين كان كثير منهم يرى انقشاع الاستعمار سيساعد على ازدهار اللغة العربية، وكانوا يتطلعون إلى اليوم الذي تقوم فيه الحكومات الوطنية فتمكن للغة الأم.

لكن المؤسف أن ما حدث هو العكس فقد رحل الاستعمار ولكنه خلف من أبناء هذه البلدان من هم أشد عداء للغة العربية من المستعمرين، إما جهلاً بأهمية اللغة في النهضة، أو رغبة في الحصول على مكاسب وقتية في الشركات والمؤسسات الأجنبية التي انتشرت في البلاد العربية، وإما بسبب العمى الحضاري الذي يصيب التبعيين ويجعلهم لا يرون الدنيا إلا من خلال عيون سادتهم الأجانب.

السؤال الثالث: طرائق تدريس اللغة العربية:

.. يعترف العديد من (اللغويين) بفشلهم في الوصول إلى الطريقة الأفضل لتعليم اللغة العربية في العصر الحاضر و(تحبيب) الناشئة فيها.

كيف ترون واقع تدريس اللغة العربية في التعليم العام؟ وكيف ترون أهمية وإمكانية غرس (حب) هذه اللغة و(الغيرة) عليها لدى هؤلاء الناشئة من خلال المعقل الوحيد وربما الأخير (المدرسة)؟

ـ إن اعتراف كثير من التربويين اللغويين بالإخفاق في تعليم اللغة العربية علامة صحة، ودليل على التوجه الرشيد نحو حل هذه المشكلة.

الحقيقة أن تعليم اللغة العربية في مدارسنا ومعاهدنا يجري ضمن ظروف غير مواتية للنجاح. نحن أولاً أخفقنا في تحديد فلسفة تعليمنا للغة، لمن نعلمها وعلى أي الأسس؟ ليس لدينا دراسات

تبين القدر الذي نحتاجه من النحو بناء على مزاجنا اللغوي المعاصر، أو احتياجنا من القواعد النحوية في مجالات الحياة المختلفة.

ما زلنا نخلط بين حاجة المتخصص وحاجة المتعلم العادي الذي يريد أن يعصم لسانه ويده من الخطأ. ركزنا على حشد أكبر كمية من القواعد وحشو أدمغة التلاميذ بها دون النظر إلى مدى احتياجهم إليها.

كان الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ يرى أن تعليم النحو يجب أن يكون كالملح في الطعام.

بناء على ذلك كان علينا أن نهتم بالطعام وهو مادة اللغة، ثم نضيف إليه ما نحتاجه من ملح، ما حدث هو أننا اهتممنا بالملح على حساب الطعام، فأفسدنا الطعام ونفرنا المتعلمين.

اللغة السليمة لا تكتسب بكثرة القواعد المحشوة في الأذهان والمحشورة في الكتب وإنما تكتسب بالممارسة وهي على مستويات مختلفة. هذه الممارسة هي التي تجمع ما يسمى بالمهارات اللغوية: الاستماع والحديث والاستيعاب، مع القراءة والكتابة وغيرها.

أهملنا نحن المهارات، فالطالب يلتقي باللغة مفرقة في كتب مختلفة، مقطعة الأوصال لا رابط بينها، ولا يكاد يلم بها

بوصفها وحدة متكاملة. ثم هو لا يعطى وقتًا كافياً لممارسة هذه اللغة قراءة وكتابة واستماعاً وتحدثاً، هدف المدرس أن ينهي الكتاب المقرر، وأن يحفظ الطالب القواعد، ويحل الأسئلة والتمرينات، أما مقدار استفادة الطالب من ذلك كله فليس في الحسبان.

كان أسلافنا القدماء يبعثون أبناءهم إلى البادية لا ليتعلموا القواعد، ويدركوا العلل النحوية، وإنما لكي يسمعوا اللغة، ويتحدثوا بها، وكان هذا يعصم ألسنتهم عن اللحن أكثر مما يفعل النحو. هل تصدق أن وضعنا الآن من حيث الوسائل المتاحة لإجادة اللغة أفضل من وضع أجدادنا.

بإمكاننا أن نأتي لطلابنا بالنصوص الفصيحة المستساغة ونسمعهم إياها ونختبرهم فيها ، ونجعلهم يحاكونها ونحاول أن نجعل اللغة سليقة لهم لا اكتسابا، لكن بشرط أن نعطيهم وقتاً كافياً لذلك.

منذ أربع سنوات زرت روضة للأطفال أنشأها الدكتور عبد الله دنان في سورية ودهشت، أطفال بين الرابعة والسادسة من العمر يتحدثون الفصحى بطلاقة دون أن يأخذوا حرفاً من النحو. يتحدثون العربية سليقة وهم لا يمضون في المدرسة أكثر من ست ساعات يومياً. الوصفة السحرية لهذه

الروضة أن لا يجري أي حديث في المدرسة إلا بالفصحى. كل العاملين في المدرسة يخاطبون التلاميذ بالفصحى ولا يسمحون لهم بالكلام إلا بها.

وحديث السليقة يجرنا إلى حديث آخر وهو البيئة اللغوية التي يعيش فيها طلابنا. لاشك أن بيئتنا السائدة بيئة عامية، لكن أليس بالإمكان أن نجعل من المدرسة بيئة لغوية نظيفة. لم نستطع حتى الآن أن نعد هذه البيئة وهي أمر مهم إذا كنا نهتم بلغة أبنائنا. كل لغات العالم تعلم ببيئات نظيفة لغوياً، غير متساهلة في اللغة المعيارية إلا اللغة العربية، فلا يعلمها إلا عوام وأشباه بالعوام، لابد لنا إذن أن نعمل على إعداد مدرسين في المدارس يعون هذا الهدف جيداً، ويحققون ما نصبوا إليه من خلق البيئة النظيفة لغوياً. التدريس رسالة سامية لتحقيق طموحات الأمة في التقدم، والمدرس الذي يواجه أبناءنا كل يوم يجب أن يكون على مستوى هذه الرسالة. أما المدرس الذي لا يستطيع ذلك أو يتخذ من التدريس مهنة لأكل العيش وحسب دون الشعور بعظمة هذه الرسالة فعليه أن يترك هذا الموقع لمن هو أجدر منه.

السؤال الرابع: تعليم اللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية:

.. يرى البعض أهمية تعليم اللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية، وذلك لاستغلال تلك الفترة المبكرة في التمكن من اللغة الإنجليزية

التي يحتاج إليها الطلاب في تعليمهم الجامعي أو في سوق العمل إن اتجهوا إليه بعد التخرج من المرحلة الثانوية، هل ترون أن لتدريس اللغة الإنجليزية في مرحلة مبكرة تأثيراً على اكتساب اللغة العربية ومكانتها لدى الناشئة؟

- لست أرى تعليم اللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية لعدة أسباب:

* أن المرحلة الابتدائية هي مرحلة تأسيس بالنسبة للطفل في سنه المبكرة وهي المرحلة التي يبدأ فيها تشكل شخصيته وانتماءاته، ولذلك فإن التركيز في هذه المرحلة ينبغي أن يكون على الثوابت. وأهم الثوابت في هذه المرحلة: الدين واللغة العربية. اللغة الإنجليزية ليست ثابتاً من ثوابتنا وليس من الضروري، بل من المستهجن، أن ندخل في خلد طفلنا الصغير أهمية هذه اللغة منذ وقت مبكر، فنساوي بينها وبين اللغة الأم، ونجعله منذ الصغر مرتبطاً بلغة غير لغته تمثل ثقافة ليست ثقافته. "مما يربك الطلاب لغوياً وعاطفياً، ويزعزع ثقتهم بلغتهم، ويجعلهم يتشربون بعض المفاهيم الأجنبية منذ الصغر، وهذا قد يبقى أثره إلى مراحل لاحقة". (الاقتباس من بحث قيم للدكتور عيد الشمري عن تدريس اللغة الإنجليزية في المملكة، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية، ١، ٢، (١٤٠٩/ ١٩٨٩م، ص ١٨١)، وستكون

جميع اقتباساتنا منه في هذه الموضوع ونشير إليه بـ "الشمري").

* مجتمعنا ليس مجتمعاً ثنائي اللغة، فنحن ـ ولله الحمد ـ جميعاً عرب مسلمون، وليس بيننا أي أقليات أو مجتمعات إثنية يمكن أن تراعي لغاتها. أما المتعاقدون من غير العرب فهم عمالة مؤقتة، طارئة سوف يستغنى عنها ـ بحول الله ـ عندما تكتمل السعودة.

* النظريات الجديدة في تدريس اللغات ترى تدريس اللغة الأجنبية عبر الربط بينها وبين ثقافة شعوب تلك اللغات وهذه النظريات تشجعها الدول الاستعمارية، مما يهز ثقافة الطفل بعقيدته وثقافته وولائه لهما (انظر: الشمري، ص١٨٢).

* تدريس الإنجليزية في المرحلة الابتدائية يتعارض مع التوجه الصائب للنهضة، وهو تشجيع التعريب في كل المجالات (الشمري: نفسه).

* تدريس اللغة الأجنبية في المرحلة الابتدائية جربته دول قبلنا كالولايات المتحدة وبريطانيا في الستينيات" وثبت فشله وكثرة تكاليفه، وخطورته على نمو الطلاب اللغوي والعاطفي، وولائهم للغتهم وثقافتهم، الأمر الذي جعل هذه الدول تقصر تعليم اللغة الأجنبية على المرحلة الثانوية" (الشمري، ص: ١٨٣).

* يضاف إلى ذلك كله التكاليف الباهظة لتوفير مدرسين لهذه المادة وتصميم مناهج مناسبة ومعامل، وإعداد وطباعة كتب ونحو ذلك، مما يشكل عبئاً على ميزانية الدولة، لا يوازي المردود الناتج عن كل هذه العملية، وقد استوعب الدكتور الشمري ذلك بالتفصيل في بحثه الآنف الذكر، ص: ١٨٢ وما بعدها.

السؤال الخامس: تعريب التعليم الجامعي:

.. هل تعتقدون أن الغالبية العظمى من مسؤولي وأساتذة الجامعات العربية يرون ضرورة التعريب وأهميته ولكنهم لم يجدوا الكيفية المناسبة للبدء بهذا المشروع، أم أن هذه الغالبية لا تمتلك تلك القناعة أصلاً وليس لديها الإرادة في الشروع بعملية التعريب للتعليم الجامعي؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يحسن بنا أن نبين الحقائق التالية:

١ـ أن التعريب في التعليم الجامعي يقصد به إلقاء الدروس الخاصة بالطب والعلوم البحتة والتطبيقية على الطلاب باللغة العربية، وإعداد أوترجمة الكتب الدراسية والأساسية بها ومطالبة الطلاب بكتابة بحوثهم وأوراقهم الفصلية باللغة العربية، وإجراء امتحاناتهم بهذه اللغة.

٢ـ أن التعريب يجعل الطلاب أكثر استيعاباً للمادة العلمية وتمكناً منها وفهماً لها ما دامت قد قدمت لهم بلغتهم الأم، وقد أثبتت الدراسات العلمية ذلك.

٣ـ أن الأمم الناهضة قد بدأت خطواتها نحو امتلاك العلم والتقنية من خلال تعليم هذه العلوم باللغة الأم، وأن دول العالم المعاصر المتقدمة والنامية التي بسبيلها للتقدم جميعها ـ إلا ما ندر ـ تدرس الطب والعلوم بلغاتها القومية.

٤ـ أمضى العرب ما يقارب ثمانين عاماً يدرسون هذه العلوم باللغة الأجنبية ومع ذلك فإنهم فشلوا في امتلاك العلم والتقنية وتوطينها عن هذا الطريق، مما يدل على إخفاق نظرية الاستمرار بالتمسك باللغة الأجنبية لغة للتدريس في الوصول بالأمة إلى أهدافها الكبرى في اتجاه التقدم.

٥ـ التعريب لا يعني الانقطاع عن تعليم اللغات الأجنبية بوصفها لغات مهمة يطل منها الطبيب والعالم والمفكر على الجديد في ميدانه. فلا بد من تكثيف تعليمها بهذا المفهوم لا بمفهوم كونها لغة التدريس.

من هذه المنطلقات يرى كثير من المسؤولين وأساتذة التعليم الجامعي ضرورة البدء بتعريب التعليم الجامعي بكل تخصصاته. أما الرافضون لذلك والمترددون فيه فلا يخرجون عن ثلاث فئات:

١ـ فئة حسنة النية تحب العربية وتؤمن بقدرتها على نقل العلوم وسائر معطيات التقنية، ولكنها تحجم وتتردد نظراً لتدفق المعلومات الهائل في هذا العصر، والخشية من صعوبة اللحاق بالركب العالمي إن نحن اقتصرنا على التعريب، وهم في تخوفهم ينظرون إلى حالة الوهن العربي، التي كان من نتائجها ضعف التنسيق بين المؤسسات العلمية، وندرة المصطلحات، وفوضى استعمالها في البلاد العربية. ولا شك أن المعوقات والتحديات في هذا المجال كبيرة، ولكن من قال إن التقدم والتحرر من التبعية وتوطين التقنية يكون بدون تحديات. إن علينا أن نواجه التحديات إن وجدت ولا شك أننا واجدون لها حلولاً ذاتية ننفذ من خلالها للوصول إلى أهدافنا.

٢ـ فئة تجهل اللغة العربية جهلاً يكاد يكون تاماً، وتجهل إمكاناتها الهائلة في التعبير، يشعر أفراد هذه الفئة بالعجز عن أداء هذه المهمة، وهم يتصرفون فيها بمزيج من الخجل المستتر والمكابرة المعلنة، ويرون أن بقاء الحال على ما هو عليه يريحهم من جهة، أو يحفظ كرامتهم من جهة أخرى.

٣ـ فئة مستغربة مستلبة، قد ربطت نفسها بكل ما هو أجنبي فهي لا ترى الدنيا إلا من خلال عيون غربية، وتعتقد أن استعمال اللغة الأجنبية هو الخيار الوحيد للنهضة، وأن الإقدام على استعمال العربية في مجال الطب والعلوم والتقنية ضرب من

الهوس الوطني. وهذه الفئة هي المستولية للأسف على معظم المنابر التعليمية في معظم البلاد العربية وخاصة في بعض البلاد المستعمرة من قبل الأجنبي الذي يبدو أنه لم يخرج من تلك البلاد إلا بعد أن ترك لثقافته ولغته وكلاء محليين ينفذون سياسته.

وقد ثبت فشل هذه السياسة التعليمية على مدى السنوات الثمانين السابقة (وهي عمر التعليم الجامعي الحديث في البلاد العربية) التي علمت بها العلوم والطب من خلال اللغة الأجنبية، فلم يجن الوطن العربي أي تقدم يذكر في هذا المجال، وتكرس اعتماده في جميع فنون التقنية على الأجنبي، ولم ينتج شيئاً ذا بال ينافس به على مستوى العالم، وسبقته بلدان بدأت معه في البدايات الأولى، وشعوب هي أقل منه عدداً وأحدث منه حضارة.

**** ماذا عن الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، أو اتحاد جامعات الدول العربية، أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .. هل من جهة عربية جامعة تملك القدرة على "الإلزام" أو "شبه الإلزام" في قضية "التعريب"؟**

ـ بالنسبة لدور الجامعة العربية والمنظمات المرتبطة بها فقد نُظِّمت كثيرٌ من المؤتمرات والندوات واللقاءات التي تعضد التعريب وتحض عليه وقد نوقش الموضوع مراراً في اجتماعات اتحاد

الجامعات العربية، واجتماعات الوزراء المسؤولين عن الثقافة في البلاد العربية، والندوات التي تناولت وضع اللغة العربية.

وينص ميثاق الوحدة الثقافية العربية الصادر سنة ١٩٦٤م على الآتي: "توافق الدول الأعضاء على أن تكون اللغة العربية لغة التعليم والدراسات والبحث في مراحل التعليم كلها وفي الوقت نفسه تعمل الدول العربية على توثيق صلة طلابها بالثقافة الأدبية والعلمية والفنية الحديثة، ومساعدتهم على إتقان الوسائل اللغوية التي تمكنهم من استيعاب هذه الثقافة".

وفي وثيقة السياسات الثقافية في البلاد العربية المقدمة للمؤتمر العالمي للسياسات الثقافية في المكسيك سنة ١٩٨٢م جاء ما يأتي: "إن الثقافة العربية تتألق بلغتها، هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، والتي تبرهن باستمرار على قدرة فائقة في التطور والنمو، واستيعاب المبدعات الإنسانية في مجالات العلم والتقنيات والفنون والآداب".

وجاء في الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أعدتها الجامعة العربية سنة ١٩٨٥م ما يآتي: "إن امتلاك السيادة الثقافية داخلياً وخارجياً يتوقف في الأساس على سيادة اللغة العربية في وطنها وبين أبنائها أولاً"

وجاء في بيان الرباط الصادر عن الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ما يأتي: "إن اعتماد اللغة العربية في التعليم بجميع مراحله واختصاصاته، وفي مختلف أجهزة العمل الإدارية والإعلام وفي التأليف والإبداع، هو السبيل الأمثل لاستعادة اللغة القومية وظائفها الطبيعية، وهو الشرط اللازم لإثراء الثقافة العربية ولممارسة حقنا المشروع في الإسهام الإيجابي في الحضارة الإنسانية".

القرارات كثيرة ومغرية، ولكنها في معظم الأحيان تستقر داخل الأدراج المظلمة، وتأخذ طريقها فور توقيعها وإعلانها إلى سراديب النسيان.

**** هل ترى أن قرار تعريب التعليم الجامعي هو قرار تعليمي/ ثقافي يتخذه وزراء التعليم العالي أو وزراء الثقافة .. أم هو قرار سياسي يحتاج إلى قوة ودعم القيادة السياسية باستمرار؟**

ـ القرار في التعريب ليس قراراً تعليمياً/ ثقافياً، فقد قال المختصون رأيهم بضرورة التعريب كما قال الوزراء والمسؤولون رأيهم في المسألة، ولم يبق إلا دعم هذا الرأي بالقرار السياسي الحاسم الذي يعيد للغة سيادتها في بلادها، ويقدر الأمة على المشاركة الجادة في الحضارة المعاصرة، ويخرجها من التبعية العلمية والثقافية الذليلة.

السؤال السادس: اللغة العربية وسوق العمل

..لكم رأي في أن اللغة الإنجليزية (تتمدد في سوق العمل لدينا بصورة سرطانية تنهش هويتنا وتهزأ بوجودنا، وتحاول أن تجعل منا أمساخاً وأشباحاً تدور في فلك غريب يبعد بنا في تكويننا الثقافي ..).

ألا ترون أن طبيعة سوق العمل في المملكة لكونها سوقاً مفتوحة وتضم مجموعة كبيرة من العمالة ــ إن لم تكن غالبة ــ لا تتحدث العربية، أن هذا يستدعي استخدام اللغة الإنجليزية بجانب اللغة العربية؟

ـ دعنا نتفق أولاً على بعض الأسس ثم ننطلق منها إلى الإجابة على هذا السؤال:

أولاً: أن أهل هذه البلاد عرب مسلمون وهم الغالبية العظمى الذين ينبغي أن تراعى أحوالهم في هذا المجال.

ثانياً: أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ومن هنا فإن لها السيادة في جميع المواقع، ولا يجب أن يزاحمها في هذه المواقع أي لغة.

الأمر الثالث: أن وجود هؤلاء الأجانب يفترض أن يكون مؤقتاً ولذلك فإننا لا يمكن أن نشكل حياتنا في المملكة على هوى هؤلاء الأجانب، بل الواجب أن يشكلوا هم حيواتهم بما يناسب وضعنا، وهذا هو الوضع الطبيعي في جميع أنحاء العالم،

فالألماني لا يحادث العامل التركي في بلاده باللغة التركية أو لغة وسيطة كالإنجليزية وإنما يحدثه بلغته الألمانية، وكذلك الفرنسي لا يتكلم مع العامل الأفريقي ببلاده باللغة الوسيطة وإنما يكلمه بلغة الدولة وهي الفرنسية؛ فلماذا نكون نحن بدعاً بين الأمم ونفرض على هؤلاء أن يتعلموا الإنجليزية ليتكلموا بها معنا كما نفرض على أنفسنا تعلم الإنجليزية كي نتفاهم معهم؟ ألست ترى معي أن هذا الوضع شاذ؟

لماذا لا تكون معرفة اللغة العربية ميزة تعطي الأفضلية للعامل الذي يلم بها كي يقدم إلى المملكة، شأننا في ذلك شأن الدول الأخرى التي تحرص على بث لغاتها وثقافاتها بين أرجاء العالم. إن في ذلك على المدى الطويل فائدة لنا حيث يتعرف هؤلاء على ثقافتنا ويعرفوننا على حقيقتنا ويتعاطفون مع قضايانا.

ثم إن اشتراط اللغة الإنجليزية للعمل في سوق بلادنا تسبب في قفل أبواب العمل أمام شبابنا المتخرج حديثاً من الثانوية أو الجامعة. وجعل الفرص مفتوحة أكثر أمام الأجانب، وهذا ما لا يحدث في أي بلد يحرص على تشجيع العنصر الوطني وإحلاله مكان الغريب.

اللغة الإنجليزية قد تكون مطلوبة في بعض المناصب والمهام القيادية والفنية الدقيقة ولكنها بكل تأكيد ليست ضرورية في معظم الأعمال التي تجري في السوق.

*** هل من الضروري استخدام "العقوبات" لتطبيق القرارات الحكومية الصادرة في شأن المحافظة على اللغة العربية في سوق الأعمال في المملكة؟**

ـ إن القرارات الحكومية الصادرة في شأن الحفاظ على اللغة العربية كثيرة، ولكن متابعة تنفيذها من قبل الجهات المعنية متراخية وغير كافية، ولا شك أن المخالفات للأنظمة والقواعد لابد لها من عقوبات رادعة.

*** ألا ترون وجاهة اشتراط إجادة اللغة الإنجليزية لخريجي الجامعات المقبلين على العمل في كثير من الأعمال التجارية والتي أصبحت (مع انفتاح الأسواق) تستدعي إجادة هذه اللغة والحضارة؟**

ـ اللغة الإنجليزية تدرس الآن في الجامعات والقدر الذي يأخذه الطلاب منها كاف، ومن أراد الازدياد منها فالبلاد مليئة بالمعاهد والمدارس التي تقدم ذلك، أنا لست ضد تعلم أي لغة أجنبية، ولا أشك في جدوى تعلم اللغات، ولكني أطالب بتنظيم العلاقة بيننا وبين هذه اللغات، بحيث لا تطغى على اللغة العربية، لغة ديننا وقوميتنا، وهي اللغة التي يجب أن تكون لها السيادة في الوطن.

السؤال السابع: اللغة العربية والعامية

.. ألم تكن «العامية» موجودة حتى في أزهى عصور «العربية»؟ فلماذا هذا التوجس الدائم من خطرها على اللغة الفصحى؟ كيف تقيِّمون مستوى خطر العامية وعلى الذائقة اللغوية والاتصال بالتراث؟

اللغة العامية كانت موجودة منذ العصور التاريخية القديمة في صورة لهجات يستعملها العامة في بيئات مختلفة، وهم يعرفون أنهم باستعمالهم إياها لا يبلغون المستوى الرفيع الذي يبلغونه بالفصحى. ولذلك كانت العامية محصورة في بيئات التخاطب الضيقة التي كانت بيئات منعزلة.

لم تكن العامية ترقى لتكون لغة الأدب أوالثقافة أو الدواوين الرسمية، ولم تكن الدروس تلقى بها في حلقات العلم، ولذلك لم يكن لها خطر على الفصحى في تلك الأيام.

لكن خطر العامية يظهر عندما تتجاوز مستواها الاجتماعي في التخاطب، لتحل مكان الفصحى في المدرسة والدواوين الرسمية ووسائل الإعلام، أو تكون أداة للكتابة في الشعر والنثر. عندئذ تصبح العامية طاردة للفصحى عن مواقعها الطبيعية، وفي ذلك خطر يهدد الأمة بالتمزق اللغوي طبقاً لكل لهجة، إذ أن كل لهجة سوف تتحول، مع مرور الزمن، إلى لغة كما حدث عند أمم أخرى. وفي هذه الحالة تصبح كل بيئة لهجية

كياناً مستقلاً عن البيئات الأخرى، له لغته التي لا تفهم في البيئات الأخرى، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على وحدة الأمة. كما أن هذه اللهجات إذا ما استقلت فسوف يكون لها أدبها ولغتها الرسمية، التي تبتعد بها عن لغة التراث العربي الإسلامي المكتوب بالعربية الفصحى. وفي ذلك انقطاع عن الإرث الحضاري والتاريخي لهذه الأمة.

**** أيهما أشد خطراً على "العربية" في نظركم العامية أم اللغات الأجنبية؟**

ـ أما من حيث أيهما أشد خطراً في هذا الوقت فالواقع أن تشجيع العامية لا يقل خطراً عن تشجيع اللغة الأجنبية، فأي موقع تطرد منه الفصحى لتحله إحداهما بدلها يعد انهزاماً للفصحى، وبالتالي يشكل خطراً على الثقافة العربية، ويسهم في إضعاف الأمة وفقدان هويتها أو تمزيقها.

**** هل مقاومة "العامية" تسير في نفس مسار مقاومة (الأجنبية) أم أنها تتخذ وسائل وسبلا مغايرة ؟.**

ـ إنني أدعو إلى وضع كل واحدة منهما في إطارها الصحيح في حياتنا، وذلك عن طريق تنظيم العلاقة بهما بحيث لا تطغى أي واحدة منهما على الفصحى، أو تأخذ مكانها السيادي في حياتنا. وأقاوم تبعاً لذلك أي تجاوز لإحداهما عن حدها في هذا المجال.

السؤال الثامن: مستقبل اللغة العربية

.. أشرتم إلى دراسات حديثة ذكرت أن عدد اللغات في بداية القرن العشرين كان ١٥٠٠٠ لغة، وتقلصت بالتدريج حتى وصلت إلى ٥٠٠ لغة، ويقال إن ٣٠٠ لغة تعد في قائمة الخطر، ويتوقع أن تستخدم البشرية في القرن الحادي والعشرين ١٢ لغة فقط لن ينتشر منها سوى ٦ لغات، كيف ترى مستقبل لغتنا العربية في ظل هذه الأرقام؟

ـ الحديث عن مستقبل اللغة العربية حديث طويل، لا تتسع له صفحات قليلة ولكن في ضوء الأرقام التي ذكرت من أن المتوقع أن يتقلص عدد اللغات في القرن الحادي والعشرين إلى ٦ لغات، وفي ظل العولمة وصراع الحضارات فإن اللغة العربية ستواجه تحديات كبرى، ما لم يتنبه إلى ذلك السياسيون والمخططون والمنفذون وأصحاب القرار، إلى جانب العلماء والباحثين؛ من أجل اتخاذ الوسائل الفاعلة الكفيلة باستمرار اللغة العربية حية ومنتجة، ومن أهمها: القضاء على الهزيمة النفسية التي يشعر بها العربي نحو لغته، ونشر الوعي بأهمية اللغة في بناء الذات العربية، وتفعيل دور اللغة في صياغة المستقبل العربي.

* مجلة "المعرفة" الرياض: وزارة المعارف، العدد ٦٥، شعبان ١٤٢١هـ/ نوفمبر ٢٠٠٠م، ص ص ـ ٨٠ ـ ٨٨.